كتب أوربية موضوعها تاريخ الهضبة الحبشية والسهول المتصلة بها والبحر الذى تطل عليه الهضبة والسهول .

1. A. H. M. Jones and Elizabeth Monroe.
"Abyssinia."
2. David Mathew
Ethiopia.
3. Kamèrèr
La Mer Rouge, Premier Partie XVI Siécle.
(Société Royole de Géographie.)
4. Longrigg.
Eritrea.

أول هذه الكتب كتاب نشر من عدة سنوات عند ما أغارت إيطاليا على الحبشة، وأحبّ الناس أن يكون بين أيديهم كتاب يسرد للقارئ تاريخ تلك المملكة القديمة منذ أقدم عصوره حتى زماننا . فقام بذلك الأستاذ چونز (A. H. M. Jones) والسيدة إنيزابث مونرو (E. Monoroe) بجامعة لندرة . والكثيرون من خريجى كلية الآداب يذكرون الأستاذ چونز مدرساً ممتازاً للتاريخ اليونانى الرومانى بالكلية . وأما السيدة مونرو فهى من أعضاء المعهد البريطانى الملكى لدراسة العلاقات الدولية . وقد انصرفت لشئون البحر المتوسط ، تراسل فيها بعض الصحف البريطانية المهمة ، ولها فى تلك الشئون كتاب من النوع الذى يجمع بين الجغرافيا والتاريخ .

وكتاب چونز ومونرو فى تاريخ الحبشة خلاصة طيبة لبحوث الباحثين المدققين فى مبادىء تلك المملكة ، كيف تألفت ، كيف تنصرت ، كيف اكتسبت تماسكها التاريخى على الرغم من كل العوامل المؤدية إلى التفرق والتصدع ، وما أفاد أهلوها من حضارات الدول القديمة : المصرية والبطليموسية والرومانية والبيزنطية والإسلامية . والكتاب فيما أرى خير ما يبدأ به كل من يريد دراسة موضوعات التاريخ الحبشى ، وإن كانت

فصوله ليست على قدر واحد من الإصابة والجودة ، والمتعلقة منها بالأزمنة الحديثة أقل وفاء بغرض الكتاب من الفصول المخصصة للأزمنة القديمة . والكتاب أيضاً أقرب لتسجيل حقائق التحقيق العلمى منه لتفسير أو لتحليل مشكلات التاريخ الحبشى ، فهو لا يعرض — مثلا — لتصوير المجتمع الحبشى على ما كان عليه نهائيا بعد أن تكوّن ، وهو إذ يدلنا على عناصره اليهودية والنصرانية والعربية قبل الإسلام وبعده ، وكذا عناصره القبلية الوثنية والكاثوليكية الحديثة — فإنه لا يدلنا على ما آل إليه أمر المزيج ، هل انتهى أمره إلى التحجر ؟ وما السرّ فى عجز هذا الملك الحبشى (بعد فترة الفتح فى الجزيرة العربية قبل الإسلام) عن الامتداد ؟ وما السرّ أيضا فى احتفاظه باستقلاله وتماسكه ؟

هذه المسائل وأمثالها مما نجد شيئا عنه فى الكتب الثلاثة الأخرى . ففى الكتاب الذى نشره منذ عام المطران الكاثوليكى الإنجليزى دافيد ماثيو (David Mathew) تحت عنوان « إثيوبيا » تأكيد مستفيض للعامل الذى اعتبره المؤلف أقوى العوامل فى التطور التاريخى الحبشى — وهو بناء الملك على نسبة العرش والتاج لملك سليمان الحكيم . فتلك النسبة هى التى رفعت بيت الملك فوق ما عداها من بيوتات الإمارة ، مهما بلغت هذه أحيانا من اتساع الرقعة وكثرة الأتباع والمال ، وأكسبت ملك الملوك أو رأس الرؤوس حرمة وقداسة ، وجمعت حوله فى أيام الفتن والغزو قلوبا وسواعد مكنت الحبشة من التغلب على عوامل التفرقة ومطامع الفاتحين .

وقد يبدو فى هذا شىء من الغلو — وقد يخطر لنا أن المؤلف لم يعط عاملا آخر حقه من الإيضاح ، ذلك العامل نلخصه فى قولنا أن الملك الحبشى كما عرفه التاريخ نتيجة قهر وسلطان أحرزه عنصر من عناصر الحبشة على أخلاط من الناس ، وإن ذلك العنصر القاهر بقى عنصراً قاهراً ، ولم يعرف كيف يتحول من خطة القهر إلى خطة تكوين أمة متعددة العناصر ، حية بحياة كل عنصر ، غنية بالتعدد ، تدين للسماحة ، وتتعصب للحرية .

هذا ما آخذه على كتاب المطران ماتيو — ولكنه نجح نجاحا باهراً فى أمر آخر . ذلك أنه رسم صوراً بديعة غريبة لمجتمع غريب فى بابه : ففيه صور الأشخاص : الأباطرة والرؤوس وزوارهم من المبشرين وطالبى

الرزق والرحالين والمغامرين الهاربين من يد العدالة أو من أثقال الحضارة ، وصور القصور والكنائس والأديرة ، وصور أولئك الرؤساء الدينين من أقباط مصر وما جرى منهم ، وما جرى عليهم ، وصورة ذلك الجبل الذى آوى إليه ذرارى الملوك فلا يكون لصاحب الملك منافس ، وهكذا ، مما أبدع المؤلف فى تنميقه . من ذلك الفصل الذى عقده المؤلف للنجاشى ثيودور ، الذى انتهى أمره بالانتحار عقب نجاح حملة تأديبية بريطانية فى اقتحام بلاده — ولا يسهل علينا أن نتصوره من أهل منتصف القرن التاسع عشر . ومن ذلك أيضاً صورة « أبونا » سلامة ، وهو ممن أوفدتهم الكنيسة القبطية لرياسة الكنيسة الحبشية ، وكان رجلا « عجيبا » فى حياته الخاصة وفى نصيبه من الحوادث السياسية والدينية .

وقد درس المطران ماثيو أيضاً علاقة الأحباش بالعالم أو العوالم الخارجية دراسة غير منتظمة ومتفاوتة ، فعنى — وذلك ما ننتظره من مطران كاثوليكى — عناية خاصة بعلاقات الأحباش بالكاثوليكية ممثلة — بوجه خاص — فى البعثات الدينية التى أوفدها ملوك البرتغال أو البابا أو الجمعية اليسوعية . وكانت دراسته لها عادلة غير متحيزة ، ولم يحمله ما حدث لبعض المرسلين من التعذيب أو الاضطهاد أو القتل على الخروج عن جادة الإنصاف ، وأدرك أن تلك البعثات الدينية وغير الدينية كانت — كما نقول اليوم — أمراً له ما وراءه .

وعلينا إذن — لدرس تلك العلاقات — أن نرجع لغير كتاب المطران ماثيو، فلنر ما فى الكتابين الثالث والرابع من كتبنا الأربعة ، ولنبدأ بالكتاب الثالث.

هذا الكتاب ظهر فى الشهر الماضى فقط ، وفى القاهرة ، وعلى يد جمعيتنا الملكية الجغرافية . وهو مجلد جديد من مجموعة المجلدات العديدة التى وضعها المؤرخ الشيخ — كامبرر — تاريخ البحر الأحمر فى خلال العصور ، والبحر الأحمر من البحار صاحبة التاريخ المفعم بالعبر .

وتاريخ بحر كالبحر الأحمر عبارة عن تاريخ استخدام الإنسان له ، التى ترتبت على هذا الاستخدام ، أو هو — بعبارة أخرى — استعراض رويةجديدة لانقلابات وأحداث خطيرة : لهجرات الأقوام ، للانقلابات التجارية ، لتقابل الحضارات ولتصادمها ، لقيام دول وسقوط أخرى ،

لربط ما بين سواحله وما وراءها وأقطار نائية . ومن ثم حق لمؤرخ مصرى من أعيان الجيل الماضى أن يطلق على تاريخ عام وضعه ذلك الاسم الحافل بالمعانى « تاريخ دول البحار » ؛ وينبغى ألا ننسى اسم إسماعيل سرهنك .

بدأ المسيو كامرير وضع كتابه هذا منذ سنوات عديدة ، ووافاه التوفيق فنال رعاية جلالة الملك فؤاد ومن بعده جلالة الملك المعظم حفظه الله ، وبفضل هذه الرعاية تمكنت الجمعية الجغرافية من نشره .

وطريقة المؤلف فى الكتاب تستوجب شيئاً من دقة النظر ، فالظاهر للقارىء أن « مادة » الكتاب مما ينمو فى يد المؤلف نمواً طليقاً . وإن القارىء ليجد متعة فى هذا وبخاصة عند ما يقع نظره على خريطة لم يُسبق المؤلف فى نشرها ، أو على مقتبسات من مخطوط ، أو على رسم غير معروف — أى أن القارىء يصيب تلك اللذة التى يصيبها من أطلق له العمل فى مكتبة قديمة غنية بمخطوطاتها وتحفها وخرائطها — وهذه اللذة لا تخلو — مع الأسف — مما يكدرها . وقد أصبحت أوقات الناس مما يتطلب أيضا شيئاً من الترتيب والتهذيب والتنظيم !

هذا وقد وصل المسيو كامرير بتاريخه للبحر الأحمر لعهد مهم — أطلق عليه اسم « الحبشة فى وجه الإسلام » . وقد قصد بصفة خاصة إلى بيان امتداد سلطان العثمانيين إلى البحر الأحمر على أثر دخولهم مصر فى القرن السادس عشر ، وإلى ما كان من اصطدامهم بالزحف البرتغالى نحو ذلك البحر من الجنوب . وامتد بالمؤلف موضوع الحبشة فى وجه الإسلام ، فعرض للمحاولة المصرية فى عهد محمد على وإسماعيل ، لتنظيم شئون ذلك البحر إخراجاً له من ركوده وسبقاً للزحف الاستعمارى الأوربى الحديث .

ويتصل الكلام فى مبدئه بوصول البرتغاليين للهند ومحاولتهم بناء إمبراطورية استعمارية ضخمة على السواحل الإفريقية والعربية ، تحقيقا للفكرة الصليبية القديمة التى اختلطت بالأطماع التجارية الجديدة . وصادف هذا بعث جديد للقوة الإسلامية ممثلة فى الدولة العثمانية وامتداد سلطانها لمصر والحجاز واليمن وللساحل الإفريقى المواجه له المتاخم للهضبة الحبشية . وكان اصطدام ال

ولحد ما لم يكن الاصطدام مباشراً ، فقد اعتمد البرتغاليون على امر الحبشية ، كما اعتمد العثمانيون على قوة الإمارات الإسلامية القائمة فى الأراضى

المنخفضة بين الهضبة والبحر — وهى الأراضى التى تكون منها ما عرفته الكتب العربية بأسم يصح أن نحييه : الطراز الإسلامى . وقد استحقت تلك الإمارات مؤلفا خاصاً من مؤرخنا الكبير : تقى الدين المقريزى .

وقد شدت كل من الدولتين البحريتين أزر الأفريقيين ، ودارت الحرب يوماً لأولئك ويوماً لهؤلاء وانتهت بنوع من التوازن بين أهل السهول وأهل الهضبة — وذلك عندما انشغل العثمانيون والبرتغاليون عن البحر الأحمر وما يجرى فيه .

وبقى هذا التوازن قائماً إلى أن طرأ على الموقف فى القرن التاسع عشر عاملان جديدان : التنظيم المحمدى العلوى والاستعمار الأوربى . وهنا يؤدى بنا الموضوع لكتابنا الرابع . وموضوع هذا الكتاب الوحدة التى اصطنعها الاستعمار الإيطالى وسماها « إريتريا » من الأقاليم المصرية فى مصوع وما خلفها وما اقتطعه الإيطاليون من المملكة الحبشية ، ومؤلف الكتاب المستر لونجريج الحاكم البريطانى للمستعمرة بعد إزالة الحكم الإيطالى عنها .

وقد شرح المؤلف مبادىء تكوين المستعمرة ، وكانت نواتها الأصلية الأقاليم المصرية على ساحل البحر الأحمر وهى الأقاليم الداخلية الواصلة ذلك البحر بحوض النيل . نزلت إيطاليا تلك الأقاليم عقب تمزيق الدولة المصرية الذى تلا الاحتلال البريطانى لمصر ، وكان من جراء ذلك التمزيق استيلاء فرنسا على تاجوره ، وإنجلترة على زيلع ، وإطلاق يد الأحباش فى مسلمى هرر .

واصطنع الإيطاليون مستعمرة من أراضى المرتفعات والمنخفضات ، يسكنها مسلمون ونصارى وبدو وحضر ، وتكتظ حواضرها بالمهاجرين الإيطاليين . وتتبع المؤرخ لونجريج مساعى الإيطاليين لتوسيع مستعمرتهم ، ووصف حربهم الأولى مع الأحباش التى انتهت بهزيمة عدوة المشهورة ، وأتى على ما كان من أمر غزو الحبشة نفسها فيما بعد وخاتمته المعروفة لنا أجمعين .

وفى الكتاب فصول قيمة مستقاة من مصادرها عن أحوال المستعمرة وسكانها ، وطرق الإيطاليين فى استقلالها وحكم أهاليها .

وهذا عرض سريع لكتب أربعة فى مسائل تاريخية — قديمة معاصرة — لها شأنها س بالنسبة لنا ، من حيث تاريخنا ، ومن حيث واجبنا عند النظر فى شئون البحر ا طه بالوادى ، مترسمين فى هذا وذاك خطى قائدينا — محمد على وإسماعيل .

محمد شفيق غربال